(1)

الأسطورة والوعى الإنسانى

obeikandl.com

obeikandl.com

**** تمهيد**

جاهد الإنسان دوماً فى كشف حقيقة العالم والحياة والبدايات، وشغلته الغايات والنهايات؛ وكانت وسيلته إلى ذلك مرتبطة بالمرحلة التاريخية لتطوره نفسياً وعقلياً. فاعتقد – فى البداية – أن العالم بكل مظاهره المتنوعة يخضع لترابطات وقوانين وقواعد معينة، وتصور أن معرفته بتلك الترابطات وقواعدها، تساعده فى السيطرة على الطبيعة المحيطة به وإخضاعها لرغباته ومصالحه [1]. فهو يتوهم أنه يستطيع مثلاً استجلاب الأمطار – عن طريق ممارسات سحرية معينة – تدفع الطبيعة مجبرة للاستجابة، كما يستطيع شفاء الأمراض، والقضاء على الأعداء، ودفع الكوارث الطبيعية بالطريقة نفسها. وقد تجمعت لديه عبر القرون، مجموعة من القواعد تؤلف، فى مجموعها، سفراً متكاملاً للسحر. ولم يكن الإنسان فى ممارساته تلك، يستعين بأية قوى خارقة أو إلهية من أى نوع؛ لإيمانه المطلق بأن تتابع الأحداث يخضع لقانون معين، هو جزء أصيل من الطبيعة ذاتها، لا خارجاً عنها ولا متعالياً عليها [2].

على أن الإنسان، بعد تاريخ طويل ملئ بالمرارة والألم والفشل فى السيطرة على محيطه بعلمه الخاص بالسحر، اتجه إلى الدين [3]. فإذا كان العالم قد تمرد حتى الآن على الإنسان، مثبتاً عدم خضوعه لتلك الترابطات المفترضة، فلابد – إذن – من وجود قوى خارقة تقف وراء ظواهر الطبيعة، قوى إلهية مفارقة لها، فعالة فيها. ولابد أن يكون الكون مظهراً مادياً لتلك الطاقات الإلهية ونتاجاً لفعاليتها وقواها المستمرة. من هنا بدأت مرحلة جديدة تتميز بالقرب لتلك القوى وجذب لعطفها، ومحاولة تفهم رغباتها وآلية فعلها وشروطه [4]. فظهر الدين وتطور بعنصريه: الأول نظرى وهو الإيمان فى وجود قوى أعلى وأسمى من الإنسان، وهذا العنصر يستخدم الأسطورة أداة للمعرفة والكشف والفهم. والثانى عملى، وهو محاولة استمالة هذه القوى وإرضائها [5]. والأسطورة – فى هذه الحالة – هى

التفكير فى القوى البدائية الفاعلة، الكامنة وراء مظهر العالم، وكيفية عملها وتأثيرها؛ وترابطها مع عالمنا وحياتنا. إنها أسلوب فى المعرفة والكشف والتوصل للحقائق، ووضع نظام مفهوم ومعقول للوجود؛ يقنع به الإنسان ويجد مكانه الحقيقى ضمنه، ودوره الفعال فيه. إنها الإطار الأسبق والأداة الأقدم للتفكير الإنسانى المبدع، الخلاّق، الذى قادنا إلى العلوم الحديثة، ومنجزات الحضارة المعاصرة [6].

إلا أن الفكر الإنسانى فى وثبته هذه لا يقف عند إطار، ولا يهدأ فى مستقر يطمئن إليه، أو يركن إلى معرفة يظنها مطلقة، فهو فى حركة دائمة تتجاوز ما وصلت إليه. فتهاوت الأسطورة تحت مطارق الفلسفة، وتجرع سقراط السم جزاء اجترائه على آلهة اليونان، ومن بعده تابع أفلاطون وأرسطو المهمة. وتعاونت – مع الفلسفة – الديانتان اليهودية والمسيحية، وعمدت إلى رمى كل ما ليس له سند من الكتاب المقدس، فى عهديه القديم والجديد، فى سلة الأكاذيب. ثم أدى تبلور المناهج العلمية مع مطلع العصر الحديث إلى الازدراء الكامل للأسطورة وإنزالها إلى مرتبة الحكاية المسلية (أو القصة الشعبية) [7]، لما تحتويه من عناصر غيبية تتنافى والتفكير العلمى السليم، كما ادعى العلم – فى بعض مراحله – القضاء على الفلسفة والدين معاً [8].

وجاء القرن التاسع عشر، فى أوروبا، وجلب معه ثورة فنية وجمالية، أعادت للأسطورة رونقها وبهاءها كشكل فنى تعبيرى من أشكال الفولكلور والأدب الشعبى، بعد أن أراد أصحاب عصر التنوير – فى القرن الثامن عشر – محوها. ولم تكن إعادة الاعتبار هذه إلا مرحلة أولى، فما لبث "الرومانتيكيون" [9] أن خطوا خطوات أبعد فى النظر إلى الأسطورة، فاعتبروها أصلاً للفن والدين والتاريخ؛ وصارت لهم منهلاً ثرياً وملهماً. ثم اتجهت إليها العلوم الإنسانية، تبحث خلف الشكل الظاهر عن رموز كامنة ومعانٍ عميقة تعين على فهم الإنسان وسلوكه وحياته النفسية وآليات تفكيره وعواطفه ودوافعه، فقدمت علوم الاجتماع والنفس والأنثروبولوجيا مادة قيمة وغزيرة للأسطورة [10]. وإلى جانب هذا ظهر فرع جديد من فروع المعرفة، يعنى بدراسة وتفسير الأساطير يدعى بـــ "الميثولوجيا"

Mythology [11]. وأصبح يُنظر إلى علم الأساطير على أنه علم قائم بذاته له مادة دراسته ومناهجه الخاصة به .

ما هى الأسطورة ؟

يقول القديس أوغسطين فى "الاعترافات" :

"إننى أعرف جيداً ما هى، شريطة ألا يسألنى أحد عنها؛ ولكن إذا ما سُئلت وأردت الجواب فسيعترينى التلكؤ، معتمداً على الخداع فى مقولة الزمن ومتنبئاً بتورط كل من تحدثه نفسه أن يقدم تعريفاً شاملاً موجزاً للأسطورة" [12].

على ضوء ذلك، يصعب علينا إيجاد تفسير للأسطورة والإدلاء بتعريف شامل وموجز لها، والخطأ هنا يكمن فى السؤال نفسه؛ ذلك لأن الأسطورة كانت دائماً موضع تحول دائم ومستمر، فهى كالكائن الحى تشمل ما فى الحياة من تبدل وتغير وتطور وصيرورة. إنها بنية ثقافية من مجموع البنى المكونة لثقافات العالم عبر تطوره الحضارى، وعبر صيرورته التاريخية [13]. هى – كما يقول بيير آلبوى – سؤال يبقى بلا جواب محدد، فتبقى دائماً منتظرة لمتسائل جديد ولمفسر يستشف من ورائها معنى من معانى الوجود" [14]. من هنا كان من العسير الاهتداء إلى تعريف للأسطورة– كما يقول "ميرسيا إلياد" Mircea Eliade (1907 – 1986):

"يقبله كل العلماء ويكون – فى الوقت ذاته – فى متناول غير المتخصصين. تعريف واحد شامل ينسحب على كافة أنماط الأساطير وأشكالها، عند جميع المجتمعات الموغلة فى القدم؛ والمجتمعات التقليدية" [15].

هذه العبارة تعكس الكثير من ملامح الوضعية الراهنة للأسطورة والتى ما زالت تثير مناقشات طويلة حول مدى علميتها وتميزها. فمنذ بداية القرن التاسع عشر وزيادة الاكتشافات عن أماكن ومجموعات بشرية (لم تكن معروفة من قبل)، اهتم جيل من العلماء بدراسة الأساطير وعادات الشعوب وتقاليدها؛ فى محاولة لاستجلاء بعض كوامن الموروثات الثقافية، والممارسات الطقوسية الشائعة فى حياة

obeikandl.com

الناس [16]. واتجه عدد من الباحثين إلى محاولة إدراك ما كان وتفسيره، فى ضوء ما هو كائن؛ وإقامة أسلوب نقدى معقول فى تحديد سبل معرفة نظرة الإنسان إلى الكون، وتفسيره لمواضع الوجود الذى أحاطه. . وكذلك وضع منهج علمى فى استقراء ما هو كائن بالفعل فى عادات بعض الشعوب التى احتفظت بموروثاتها الثقافية فى عزلة عن باقى الحضارات الإنسانية [17].

وظهرت اتجاهات شتى فى دراسة الأساطير وتعددت التعريفات والتفسيرات من مختلف التخصصات والاهتمامات. فذهب البعض إلى أن الأسطورة :

"حكاية إله أو شبه إله أو كائن خارق تُفسر بمنطق الإنسان البدائى ظواهر الحياة والطبيعة والكون والنظام الاجتماعى وأوليات المعرفة، وهى تنزع – فى تفسيرها – إلى التشخيص والتمثيل والتحليل، وتستوعب الكلمة والحركة والإشارة والإيقاع؛ وقد تستوعب تشكيل المادة. وهى عقيدة لها طقوسها، فإذا تعرض المجتمع الذى تتفاعل معه الأسطورة لعوامل التغير، تطورت (الأسطورة) بتطوره وقد تتبدد تحت وطأة عناصر ثقافية؛ فتنفرط عقدتها وتنحدر إلى سفح الكيان الاجتماعى أو ترسب فى اللاشعور. وتظل على الحالتين عقيدة أو ضرباً من ضروب السحر (عند الإنسان البدائى) أو ممارسة غير معقولة أو شعيرة اجتماعية. وكثيراً ما تتحول إلى محاور رئيسية تعاد صياغتها فى حكايات شعبية" [18].

تقدم الأسطورة – من المنظور السابق – تفسيرات لعلل التغير الحادث والكائن فى الظواهر الكونية، وعلاقة هذه الظواهر وعللها الغيبية بالإنسان؛ إنها تدور حول ما أطلق عليه "مأساة البشر" التى تتمثل فى ضياع الإنسان وتمزقه بين محور الإرادة والقدرة على الفعل من ناحية، ومحور القدر وفشل الإنسان وعدم قدرته على تحقيق هذا الفعل من الناحية الثانية[19].

لكن القيمة الدلالية، التى منحتها كلمة "الأسطورة"، تجعل من استعمالها فى اللغة الدارجة أمراً يبعث شيئاً من الالتباس؛ لأن هذه الكلمة تستعمل اليوم بمعنى

"التخيل" Fiction أو "الوهم" Illusion. كما تستعمل بالمعنى المتعارف عليه، خاصة عند علماء الأثنولوجيا [20] والاجتماع وتاريخ الأديان، أى بمعنى "المأثور المقدس" أو "الوحى الأولى" أو "النموذج المثالى" [21].

وبالرجوع إلى تاريخ الكلمة، يلاحظ أن فلاسفة اليونان أفرغوا الأسطورة – تدريجياً – من قيمتها الدينية والميتافيزيقية؛ فبعد أن وضعوا "الأسطورة" Mythos فى تضاد مع "اللوجوس" Logos ثم مع "التاريخ" Historia انتهت الأسطورة إلى الدلالة "على كل ما لا يمكن أن يوجد حقاً"، أو "ما لا وجود له فى عالم الواقع" [22]. واعترض بعض الفلاسفة على العبارات الأسطورية التى استخدمها "هوميروس" فى وصف الآلهة، وعدوا ما أورده – من الأساطير – عبارة عن تهاويل خيال ووهم. وأبى "أكسانوفان" أن يقتنع بخلود الآلهة، واعترض – بخاصةٍ – على النزعة التشبيهية التى تصور الآلهة على شاكلة البشر؛ واحتج بأنه لو أتيح للخيل والأنعام والوحوش القدرة على الرسم لصورت الآلهة على مثالها .

ورأى البعض أن أسماء الآلهة، فى أساطير "هوميروس"، إنما تدل على الملكات الإنسانية أو العناصر الطبيعية، كما رأى فريق آخر من المفكرين أن هذه الأساطير عبارة عن مجموعة من الرموز والمجازات لمعان وقوى ومثل. هى "صيغة سردية لتلك الرموز النموذجية الأصلية التى تشكل معاً رؤيا مترابطة عما يعرف الإنسان ويعتقد" [23]. وظهر اتجاه آخر يحتكم إلى العقل فى تفسيره للأساطير، ويذهب أصحابه إلى أن الآلهة كانت فى أصلها طائفة من الملوك بلغت من القوة والتأثير شأناً عظيماً جعل الناس يتجاوزون بها عالم الواقع إلى عالم الخوارق ثم يؤلهونها [24]. ولهذا الاتجاه أهميته، ذلك لأنه جعل للأساطير واقعاً تاريخياً؛ ولعل الأصح أن يقال إن الأساطير قد أصبح لها – بفضل هذا الاتجاه – واقع فيما قبل التاريخ. وأخذت الأساطير، منذ ذاك، تمثل الذاكرة الإنسانية عندما تستدعى مرحلة زمنية غارقة فى كنف الغموض، مما دفع الخيال إلى تصوير الملوك تصويراً خارقاً فى عصور سحيقة غلبت عليها البداوة [25].

وأياً ما كان أمر اختلاف التعريفات والتفسيرات، فإن النقطة الأساسية هى

أن الباحث فى الأساطير يواجه – منذ البداية – موقفاً يبدو متناقضاً لأول وهلة. فهو يجد، من ناحية أن الأسطورة قد تتضمن أحداثاً وأفعالاً متباينة بحيث لا يكاد يستبين فيها أى نوع من المنطق أو حتى الاستمرار والاطراد، كما أن شخصيات الأسطورة قد تتشكل بأشكال كثيرة وتجمع بين خصائص وصفات متباينة وتتراوح بين الخير والشر وارتكاب كل أنواع الجرائم والموبقات؛ وتقوم بينها كل أنواع العلاقات التى يمكن تصورها، أى أن كل شىء يصبح فى الإمكان حدوثه فى الأسطورة – مهما يبدو غريباً فى نظر الباحث. ولكنه من الناحية الأخرى سوف يجد أن ثمة درجة عالية من التشابه بين أساطير الشعوب المختلفة التى تفصل بينها مساحات شاسعة بل وحقبات زمنية طويلة، وهذا التشابه يثير – بغير شك – كثرة من التساؤلات ويحتاج إلى تفسير. بل الأكثر من ذلك، فإننا – نحن أنفسنا – كثيراً ما نحاول أن ننسب بشكل أو بآخر، إلى الأساطير الكبرى شيئاً من "الصدق الرمزى" الواضح أو المستتر؛ والذى لم يخطر – فى الغالب – على أذهان الجماعات أو الشعوب التى أبدعت هذه الأساطير[26].

الأسطورة والدراسات الحديثة

ذكرنا – فيما سبق – أن القرن التاسع عشر هو البداية الحقيقية لاهتمام العلماء والفلاسفة واللغويين وعلماء الأنثروبولوجيا بدراسة الأسطورة، وبعض كتابات ذلك القرن تعتبر معالم أساسية على الطريق؛ وإن كانت لم تبلغ بطبيعة الحال نوعاً من الدقة والعمق. ولكى نتعرف على الاتجاهات والمسارات التى سلكتها البحوث الميثولوجية، يمكن الرجوع إلى الدراسات التى قدمت تفسيرات مختلفة للأسطورة. ومن أقدم المدارس (ذات القيمة العلمية) المدرسة التاريخية أو المدرسة "اليوهيميروسية" Euhemerism [27] التى ترى فى الأساطير قصصاً تروى بعض الأحداث العامة فى حياة الشعب الذى أبدعها بعد إدخال بعض التعديلات عليها وصياغتها فى قالب قصصى مشوق. وبهذا المعنى، ليست الأسطورة نتاج الخيال المجرد، بل هى ترجمة لملاحظات واقعية ورصد لحوادث جارية. وعبرها، انتقلت إلينا تجارب الأولين وخبراتهم المباشرة. وهى تعود فى أصولها إلى أزمان سحيقة

سابقة للتاريخ المكتوب. فقبل أن يتعلم الإنسان الكتابة، كانت ذاكرته على قدر كبير من النشاط والحيوية؛ وقد استخدمها لنقل الأحداث بأمانة عبر الأجيال [28].

وقد اهتم بهذه النظرية (ذات الطابع العلمى) "ماكس موللر" Max Muller، و"أندرو لانج" Andrew Lang، و"مورودى جونس" Moreau de Jonnês، و"ا. هوفمن" A. Hoffmann، وأيضاً "ادلبرت كون" Adalbert Kohn، و"وليام جل" William Gill، و"ولتر كيلى" Walter K. Kelly [29]. وغيرهم من رواد الدراسات الأسطورية، وعلم الأساطير المقارن مثل "روبرت براون" (الصغير) Robert Brown، الذى بين أثر الثقافات السامية القديمة على الأساطير الهيلينية الدينية؛ وبخاصة تلك الأساطير التى وفدت من شواطئ الفرات والنيل. ويكفى أن نشير هنا، إلى موقف اثنين من أكبر علماء القرن التاسع عشر وهما: "آندرو لانج" (1844 ـ 1912)، و"ماكس موللر" (1923 ـ 1900) صاحب كتاب "الأساطير المقارنة" وهو أول من يجب التعرض له، لأنه يحتل مكانة مرموقة فى تاريخ الدراسات الميثولوجية الطبيعية؛ التى تحاول تأويل الأساطير على أساس الخصائص اللغوية ـ وبخاصةٍ "الإشارة إلى جنس الكلمات المستخدمة فى الأسطورة". "فالصلة بين اللغة والأسطورة ـ على حد قول موللر ـ ليست مجرد صلة وثيقة، بل هى توافق فعلى. ولو تسنى لنا فهم طبيعة هذا التوافق، فإننا سنكون قد اهتدينا إلى مفتاح العالم الأسطورى" [30].

وقد برزت مشكلة كبرى من جراء الربط بين اللغة والأسطورة، بعد أن كان من المتوقع أن يجئ هذا الربط بحل واضح محدد للمعضلة القديمة. فعلى الرغم من انحدار اللغة و الأسطورة من أصل واحد، لكنهما غير متماثلين فى تكوينهما. إذ يظهر فى اللغة على الدوام طابع منطقى ـ بمعنى الكلمة – أما الأسطورة فتبدو وكأنها تتحدى كل القواعد المنطقية، فهى مشوشة متقلبة لا عقلية. فكيف نستطيع الربط بين هاتين الظاهرتين غير المتوافقتين؟ [31].

كانت إجابة "ماكس موللر" والكتـّاب الذين ينتمون إلى مدرسة الأساطير المقارنة عن هذا السؤال، هى أن الأسطورة ليست إلا مظهراً من مظاهر اللغة،

ولكنها من مظاهرها السلبية لا الإيجابية. فالأسطورة تمثل جانبها السيء، أكثر من تمثيلها لجانبها الخيـّر. وتتميز اللغة ـ بغير شك ـ بأنها منطقية وعقلية، ولكنها من جهة أخرى مصدر لأوهام وأباطيل. إذ انبعثت أخطاء من أعظم ما أنجزته اللغة ذاتها. فاللغة تتألف من كلمات عامة، ولكن التعميمات تدل على الغموض والإبهام على الدوام. وتعدد المعانى والمرادفات فى الكلمات ليس من المظاهر العرضية للغة، بل هى نتاج طبيعتها ذاتها، فلو أطلقنا خمسين تسمية للشمس تعبر عن خصائص مختلفة فيها، فإن بعض هذه التسميات سيطلق للدلالة على أشياء أخرى تشترك فى الخصائص نفسها، مما يؤدى إلى اشتراك أشياء مختلفة فى الاسم نفسه. وهذا بدوره يؤدى إلى ظهور الجناس فى اللغة، وهو نقطة الضعف فيها؛ ويعتبر الجناس الأصل التاريخى الذى انحدرت منه الأسطورة [32].

وهكذا تبدو لنا الأسطورة ـ من خلال التصور السابق ـ ظاهرة مرضية، من حيث أصلها وماهيتها على السواء. إنها مرض يبدأ فى ميدان اللغة، وينتشر بتأثير عدوى خطيرة فى جسم الحضارة الإنسانية كلها. على أنه رغم دلالة الأسطورة على جانب كبير من الغموض [33]، إلا أنها قد تضمنت منهجاً، فنحن نرى مثلاً فى الأسطورة اليونانية التى تقول: إن "أبوللو" رأى الفتاة "دافنى" Daphne الجميلة فأحبها وطاردها حتى كاد يصل إليها، فابتهلت الفتاة إلى الآلهة أن تخلصها منه، واستجابت الآلهة لدعائها وانقلبت "دافنى" إلى شجرة من أشجار الغار. فهنا نجد أن "أبوللو" من كلمة تدل على مذكر ومعناها الشمس، بينما كلمة "دافنى" مؤنثة ومعناها الفجر. وبذلك فإن مطاردة "أبوللو" لـــ "دافنى" ليست إلا رمزاً إلى الشمس التى تتبع ظهورها الفجر وتطرده أمامها [34]. إن صور الطبيعة فى تفسيرات "موللر" للأساطير تبدو نمطية إلى حد كبير، ذلك لأن "موللر" كان ينتسب إلى الفرع الشمسى من مدرسة الميثولوجيا الطبيعية، أى أنه كان يقصر جميع الأساطير على تجسيد الشمس. وكان ثمة فرع آخر قمرى من هذه المدرسة يفسر جميع الأساطير على أساس تجسيد القمر، كما كانت هناك فروع أخرى تعتمد على تجسيد الغيوم، والعواصف، والرعد، والبرق وما شابه ذلك [35].

وقد وجدت هذه النظرية سنداً قوياً عند "هربرت سبنسر" Herbert Spencer (1820 – 1903) الذى رأى أن المصدر الأول لكل الديانات هو عبادة الأسلاف، واعتقد أن أول صور العبادة لم تتجه إلى قوى الطبيعة ولكنها اتجهت إلى عبادة الأموات. أما كيف تحققت النقلة من عبادة الأسلاف إلى عبادة الآلهة فى صورة أشخاص، فعن طريق قوة الكلام وتأثيره الدائم؛ فهو يمتاز بالمجاز ويغرق فى التشبيهات والاستعارات. ولما كان البدائى يعجز عن التفريق بين المجاز والحقيقة، فقد حدثت النقلة من الصور الأولى لعبادة الأسلاف؛ إلى عبادة الكائنات الإنسانية، ثم إلى عبادة النباتات والحيوانات، حتى انتهى الأمر إلى عبادة قوى الطبيعة [36].

أما "أندرو لانج" فقد بيـّن، فى مقال له بعنوان "علم الأساطير" [37]، أن التخريجات اللغوية التى يلجأ إليها "موللر" فى تفسير الأساطير لا تصلح فى كل الأحوال؛ ورفض التسليم بأن تكون سيطرة الكلمة على العقل البدائى هى السبب الأول لتكوين الأساطير فى المرحلة الأولى من مراحل الثقافة. وقد اعترف "لانج" باعتماده الكبير – فى هجومه على نظرية موللر – على الأسس التى وضعها "إدوارد تايلور" Edward Tylor (1832 – 1917) [38] الذى رأى أن الأساطير المقارنة تختلط وتمتزج بمشكلات الفكر والدين والتاريخ القديم، بحيث يصعب دراستها على أنها مجرد امتداد لعلم اللغة [39]. كما لاحظ أيضاً أن الأساطير لم تكن، فى نظر البدائيين، مجرد قصص تحكى فى ألفاظ وكلمات لها مدلولات معينة، بل كانت بمثابة عقيدة يؤمنون بها، مما يجعل من الصعب الاكتفاء بنظرية اللغويين وتحليلاتهم .

فى هذا السياق اتفق "لانج" مع "تايلور" فى أن الأساطير عند الشعوب البدائية تقوم على أساس المماثلة الحقيقية المحسوسة، بينما لم يظهر استخدام الاستعارات والتشبيهات اللفظية إلا فى مرحلة متأخرة من التطور الثقافى [40].

ومن الدراسات الأنثروبولوجية الهامة، المدرسة التطورية وكان من روادها المؤسسين السير "جيمس فريزر" Sir James Frazer (1854 – 1941) الذى وضع دراسة موسوعية للعبادات القديمة وتقاليد الشعوب البدائية فى كتابه "الغصن الذهبى"

Golden Bough. والكتاب فى أصله محاولة لفهم وتفسير أسطورة [41] بسيطة عن الإلهة ديانا Diana فى نيمى Nemi بجنوب إيطاليا. لكن البحث لم يلبث أن تفرع وتشعب وتناول كثيراً من الموضوعات فى مختلف الثقافات والمجتمعات والعصور [42]. ولقد حدد "فريزر" نفسه موضوع الكتاب بأنه دراسة للتطور الطويل الذى مر به فكر الإنسان وجهوده للسيطرة على العالم وعلى الكون كله، خلال عدد من المراحل المتتالية التى تتصف كل مرحلة فيها بطابع عقلى عام يمثل موقف الإنسان من الكون وعلاقته به. وهذه المراحل هى: مرحلة السحر ثم مرحلة الدين وأخيراً مرحلة العلم، الذى يعتبره – فريزر – قمة ما وصل إليه الإنسان[43].

على أن "فريزر" لم يقنع بجمع الظواهر الأسطورية وتصنيفها تحت عناوين عامة، إذ حاول فهمها. وكان مقتنعاً باستحالة هذه المهمة، مادامت هناك نظرة ترى وجود انفصال بين الأسطورة والفكر الإنسانى. فعلينا القضاء نهائياً على هذا الانفصال، ذلك لأن الفكر الإنسانى لا يعترف بوجود مثل هذا التنوع والاختلاف الحاد، فلا اختلاف من البداية إلى النهاية بين الفكر فى خطواته البدائية الأولى وأسمى النهايات التى يبلغها؛ فهو متجانس ومطرد [44]. وطبق "فريزر" هذا المبدأ الأساسى فى تحليله للسحر (فى الجزءين الأول والثانى من كتابه)، واعتقد أن أى إنسان يقوم بطقوس سحرية لا يختلف – من حيث المبدأ – عن أى عالم يقوم بإجراء تجربة فيزيائية أو كيميائية فى معمله. فلا اختلاف بين الساحر وطبيب القبائل البدائية، ورجل العلم الحديث؛ من حيث المبادئ التى يلجئون إليها فى تفكيرهم وعملهم .

يقول "فريزر" :

"إن التصور الأساسى للسحر يشبه تصور العلم الحديث، إذ يرتكز النسق كله على الإيمان بانتظام الطبيعة واطرادها، وهو إيمان ضمنى ولكنه راسخ وثابت ... لكن السحر بأشكاله المختلفة هو بالضرورة علم زائف عقيم لأنه لو حدث أن صدق وأثمر لخرج من دائرة السحر ودخل فى دائرة العلم. .. وإذا تم تطبيق مبادئ التفكير الإنسانى بطريقة سليمة، فإنها تؤدى إلى العلم. بينما

تطبيقها بطريقة غير سليمة وغير مشروعة يؤدى إلى السحر، الذى هو الأخ غير الشرعى للعلم [45].

ويرى "أرنست كاسيرر" Ernst Cassirer (1874 – 1945) أن نظرية "فريزر" هذه التى تطابق بين السحر والعلم وتجعل من كليهما مناقضاً للدين، لم تصمد أمام الامتحان النقدى، وقد تجاوزتها الأنثروبولوجيا الحديثة كليـــة [46].

ومن بين الدراسات الأنثروبولوجية التى عارضت الاتجاه التطورى السائد عند "تايلور" و"فريزر" نجد المدرسة "الوظيفية" التى رأت فى الأسطورة دستوراً لوقائع الموقف الاجتماعى الراهن، وحددت معناها من خلال النسق الاجتماعى وحده. بمعنى أنه لا يمكننا تفسير الأسطورة تفسيراً ملائماً إذا ما اتجهنا إلى تأصيلها فى العالم الطبيعى أو اكتفينا فى تفسير ذلك العالم بها وحدها؛ فالمصدر الأساسى الوحيد للأسطورة هو المجتمع، وكل دوافعها الجوهرية ما هى إلا مجرد انعكاسات أو صدى للحياة الاجتماعية. وبهذه الانعكاسات تصبح الطبيعة مجرد صورة للعالم الاجتماعى، فهى تعكس كل ملامحه الأساسية ونظمه ومبناه وأقسامه وتفريعاته[47]. ويمثل هذا الاتجاه كل من "رادكليف براون" Radcliffe Brown (1881 – 1955) و"برونسلاو مالينوفسكى" Bronislaw Malinowski (1884 – 1942). ولهذا الاتجاه جذور نجدها – بخاصةٍ – عند "سبنسر" الذى رأى أن تطور المجتمع الإنسانى هو استمرار طبيعى لازم من التطور العضوى [48]، فالجماعات تميل دائماً إلى النمو فيكبر حجمها ويزداد بالتالى تنظيمها وتكاملها. فكلما ازداد التفاضل أو التباين البنائى ازداد ترابط أجزاء الكائن العضوى الاجتماعى. هذه المماثلة البيولوجية التى استند إليها "سبنسر" فى تشبيهه المجتمع بالكائن العضوى، ساعدت على ترويج استخدام فكرتى "البناء" و"الوظيفة" فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية. فقد كان يؤكد دائماً ضرورة وجود التساند الوظيفى والاعتماد المتبادل بين نظم المجتمع فى كل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى، والغاية التى يهدف إليها هى إيجاد حالة من التوازن تساعد المجتمع على الاستمرار فى الوجود [49].

كما أثرت كتابات "إميل دوركايم" Emile Durkheim (1858 – 1917) –

بشكل عميق ومباشر – على الأنثروبولوجيا الاجتماعية، حيث يرجع إليه الفضل فى تطبيق النظريات الاجتماعية بمهارة واستبصار على دراسة المجتمعات البدائية؛ وحرص على إبراز الحياة الجماعية وصورها فى مجموعة القيم والعقائد والعرف التى يتعلمها الفرد حين يولد فى مجتمع من المجتمعات، وأطلق عليها اسم "التصورات الاجتماعية" [50]. وتابعه فى ذلك "ليـــڤـــى بريل" Lêvy Bruhl (1857 – 1939) بدراسة رائعة عن المحتوى الفكرى أو الذهنى لتلك التصورات الجمعية. وقد رأى أن المعتقدات والأساطير – وكل الأفكار التى تسود فى المجتمعات البدائية – تعكس البناء الاجتماعى لتلك المجتمعات، وهذا هو السبب فى اختلافها من مجتمع لآخر. وعلى هذا الأساس كرس نفسه ليبين أن هذه المعتقدات تؤلف نسقاً متماسكاً يرتكز على مبدأ منطقى يسميه "المشاركة الغيبية" [51].

وقد كان لـــ "دوركايم" تأثير واضح على كل من "براون" و"مالينوفسكى"، حتى ليمكن القول إن "دوركايم" هو مؤسس الاتجاه الوظيفى ولكن بشكل غير مباشر. أما المؤسس المباشر "للوظيفية" فهو العالم الأنثروبولوجى "فرانز بواس" Franz Boas (1858 – 1942) الذى أكد على ضرورة النظر إلى أعمق الأفكار الفلسفية والدينية بوصفها تعبيراً منظماً عن الأفكار اليومية والمواقف والقيم المنبثقة عن سواد الشعب [52].

أما "رادكليف براون" فقد رأى أن فكرة الوظيفة التى تطبق على المجتمعات الإنسانية إنما تقوم على المماثلة بين الحياة الاجتماعية والحياة العضوية [53]. وهو يتبع "دوركايم" فى تعريفه لوظيفة النظام الاجتماعى بأنه التناظر بين النظام الاجتماعى والشروط الضرورية لوجود الكائن العضوى الاجتماعى. فالوظيفة – بهذا المعنى – هى الدور الذى يؤديه أى نشاط جزئى فى النشاط الكلى الذى يكون هو جزءاً فيه. ووظيفة أى عادة اجتماعية جزئية هى، إذن، الدور الذى تلعبه هذه العادة فى الحياة الاجتماعية كلها، باعتبار هذه الحياة هى عماد النسق الاجتماعى الكلى [54].

ويعتبر "برونسلاو مالينوفسكى" من أبرز دعاة المنهج الوظيفى، وقد رفض

التفسير الرمزى للأسطورة ورأى أنها تقوم بوظيفة عملية ومباشرة، فهى رواية مناسبة من أجل توطيد النظام الاجتماعى السائد، وهى عنصر ضرورى لا غنى عنه بالنسبة للثقافات الإنسانية فى كل مراحل تطورها يقول :

"الأسطورة ليست تفسيراً تمليه الفائدة العلمية، وإنما هى إحياء قصصى لواقع فطرى يروى استجابة لحاجات دينية عميقة، وميول أخلاقية، وروابط اجتماعية وحاجات عملية. إنها تقوم من الثقافة البدائية بوظيفة لا غنى عنها فهى تعبر عن العقيدة وتصون الأخلاق وتدعمها، وتبرهن على كفاءة الطقوس وتنظم قواعد عملية لهداية الإنسان. الأسطورة ـ بهذا المعنى ـ عنصر حيوى فى الحضارة الإنسانية " [55].

إن النقطة الأساسية التى يركز عليها علماء الأنثروبولوجيا فى كل توجهاتهم هى ضرورة تفسير الأساطير ضمن البناء الاجتماعى والثقافى السائد فى المجتمع. لكننا نجد ما يخالف هذا الموقف العام لدى البنائيين الفرنسيين الذين يتزعمهم "كلود ليـــڤـــى شتراوس" Claude Lêvi - Strauss (1908) الذى يميل إلى الفصل بين الأسطورة وسياقها الاجتماعى والثقافى الخاص، ويدرسها كما لو كانت شكلاً كلياً أو عاماً من الفن يمكن تحليله وتقييمه حسب المعايير التى يرتضيها كل باحث لنفسه. لكن "شتراوس" كان يبحث ـ فى آخر الأمر ـ عن المبادئ الكلية العامة التى تكمن وراء عمليات التفكير الإنسانى، وهو بذلك يتجاوز الأهداف التى يحددها المنهج الأنثروبولوجى البنائى الوظيفى ويلتزم بها أتباع هذه المدرسة [56].

وقد اشترك علم النفس بدوره فى إعطاء تفسير للأسطورة، حيث رأى أنها ذخيرة من دوافع ذات طابع أولى بدائى تكشف عن العقل الباطن الجماعى للإنسان؛ أو هى كالحلم تماماً تظهر نوعاً من التنفيس عن الميول الانفعالية اللاشعورية المكبوتة التى تولدت عن علاقات الطفل بأفراد عائلته. وهذه الآراء المختلفة تظهر كلها فى إطار مدرسة اهتمت بتفسير الأسطورة هى "مدرسة التحليل النفسى".

من الصعب إذن أن نزعم بوجود تفسير موحد للأسطورة يعتبر هو التفسير